نعاد في تربته مضمرا • وكان يجمع الفضل في عصره • صح فلما انقضى كسرا
وعرف الفضل به برهة • والآن لما ان مضى نكرا • وكان ممنوعا من الصرف لا
يطرق من وافاه خطب عرا • لا انسى التفصيل ما بينه • وبين من اعرفه في الورى
لا بدل عن نعته بما لتقي • نعمله كان له مصدرا • لم يدغم في اللحد الا وقد
فك من الصبر وثيق العرى • يبكي له زيد وعمرو فمن • امثلة النحو ومن قررا
ما اعقد التسهيل من بعده • فكم له من غرة يسرا • وجسر الناس على خوضه
اذ كان في النحو قد استبحرا • من بعده قد حال تمييزه • وحظه قد رجع القهقرى
شارك من قد ساد في فنه • وكم له فن به استاثرا • داب بني الاداب ان يغسلوا
بدمعهم فيه بقايا الكرى • والنحو قد سار الردى نحوه • والصرف للتصريف قد غيرا
واللغة الفصحى غدت بعده • يلغي الذي في ضبطها قررا • تفسير ما البحر المحيط الذي
يهدي الى وراده الجوهرا • فوايد من فضله جمة • عليه فيها تعقد الخنصرا
وكاد تبيانا نقله حجة • مثل ضيا الصبح اذا اسفرا • ورحله في سنة المصطفى
اصدق من يسمع ان اخبرا • له الاسانيد التي قد علت • فاشتغلت عنها سوامي الذرى
ساوى بها الاحفاد اجدادهم • فاعجب لماض فاته من طرا • وشاعرا في نظمه مغلقا
كم حرر اللفظ وكم حبرا • لها معان كلما خطها • تستر ما يرقم في تسترا
افديه من ماض لامر الردى • مستقبلا من ربه بالقرى • ما بات في ابيض اكفانه
الا واضحى سندسا اخضرا • تصافح الجود له راحة • كم تعبت في كل ما سطرا
ان مات فالذكر له خالد • يحيى به من قبل ان ينشرا • جاد ثرى وافاه غيث اذا
مشاه بالسقي له سكرا • وخصه من ربه رحمة • تورده في حشره الكوثرا

وكان قد قرا القراءات على الخطيب ابي محمد عبد الحق بن علي بن عبد الله عرف بابن عشر بن خيمة افرادا وجمعا ثم على الخطيب الحافظ ابي جعفر احمد الزنباطي المعروف بالطباع بغرناطة ثم على قرا السبعة الى اخر سورة الحجر على الخطيب الحافظ ابي علي الحسين بن عبد العزيز بن محمد بن ابي الاحوص بمالقة ثم انه قدم الاسكندرية وقرا القران على عبد النصير بن علي بن يحيى المريوطي ثم انه قدم مصر فقرا بها القراءات على ابي الطاهر اسمعيل بن هبة الله المليجي وسمع الكثير على الجم الغفير بجزيرة الاندلس وبلاد افريقية والاسكندرية وديار مصر والحجاز وحصل الاجازات من الشام والعراق وغير ذلك واجتهد في طلب التحصيل والتقييد والكتابة ولم ار في اشياخي اكثر اشتغالا منه لاني لم اره قط الا يسمع او يشتغل او يكتب ولم اره على غير ذلك وله اقبال على الطلبة الاذكيا وعنده تعظيم لهم ونظم ونثر وله الموشحات البديعة وهو ثبت فيما ينقله محرر لما يقوله عارف باللغة ضابط لالفاظها واما النحو والتصريف فهو امام الناس كلهم فيهما لم يذكر معه في اقطار البلاد غيره في حياته وله اليد الطولى في التفسير والحديث والشروط والفروع وتراجم الناس وطبقاتهم وحوادثهم خصوصا المغاربة وتقييد اسمائهم على ما يتلفظون به من امالة وترقيق وتفخيم لانهم يجاورون بلاد الافرنج واسماؤهم قريبة من لغاتهم والقابهم كذلك وقيده وحرره وسالته شيخنا الذهبي اسيلة فيما يتعلق بذلك واجاب عنها وله التصانيف التي سارت وطارت وانتشرت وما انتثرت وقريت ودريت ونسخت وما فسخت اخملت كتب الاقدمين والهت المقيمين بمصر والقادمين وقرا الناس عليه وصاروا ائمة واشياخا في حياته وهو الذي جسر الناس على مصنفات ابن مالك رحمه الله تعالى ورغبهم فيها وفي قراءتها وشرح لهم غامضها وخاض بهم لججها وفتح لهم مقفلها وكان يقول عن مقدمة ابن الحاجب هذه نحو الفقها وكان التزم ان لا يقرئ احدا الا ان كان في كتاب سيبويه او في التسهيل لابن مالك او في تصانيفه ولما قدم من البلاد لازم شيخنا بها الدين رحمه الله كثيرا واخذ عنه كتب الادب وكان شيخا حسن العمة مليح الوجه ظاهر اللون مشربا حمرة منور الشيبة كبير اللحية مسترسل الشعر فيهما لم تكن كثة عبارته فصيحة بلغة الاندلس يعقد القاف قريبا من الكاف على انه لا ينطق بها في القران الا فصيحة وسمعته يقول ما في هذه البلاد من يعقد حرف القاف وكانت له خصوصية بالامير سيف الدين ارغون كافل الممالك ينبسط معه ويبيت عنده في قلعة الجبل ولما توفيت بنته نضار طلع الى السلطان الملك الناصر محمد وساله ان يدفنها في بيته داخل القاهرة في البرقية فاذن له في ذلك وكان اولا يرى راي الظاهرية ثم انه تمذهب للشافعي رضي الله عنه وبحث على الشيخ علم الدين العراقي المحرر للرافعي ومختصر المنهاج للنووي وحفظ المنهاج الا يسيرا وقرا اصول الفقه على استاذه ابي جعفر بن الزبير بحث عليه من الاشارة للباجي ومن المستصفى للغزالي وعلى الخطيب ابي الحسن بن فضيلة وعلى الشيخ علم الدين العراقي وعلى الشيخ شمس الدين الاصبهاني وعلى الشيخ علاء الدين الباجي وقرا الشامل اصول الدين على شيخه ابن الزبير وقرا عليه شيئا من المنطق وقرا شيئا من المنطق على بدر الدين محمد بن سلطان البغدادي وقرا عليه شيئا من الارشاد للعميدي في الخلاف ولكنه برع في النحو وانتهت اليه الرياسة والمشيخة فيه وكان خاليا من الفلسفة والاعتزال والتجسيم وكان اولا يعتقد في الشيخ تقي الدين بن تيمية وامتدحه بقصيدة ثم انه انحرف عنه لما وقف على كتاب العرش له قال الفاضل كمال الدين الادفوي وجرى على مذهب كثير من النحويين في تعصبه للامام علي ابن ابي طالب رضي الله عنه التعصب المتين قال وحكى لي انه قال لقاضي القضاة بدر الدين بن جماعة ان عليا رضي الله عنه عهد اليه النبي صلى الله عليه وسلم ان لا يحبك الا مومن ولا يبغضك الا منافق اتراه ما صدق في هذا فقال صدق قال فقلت له فالذين سلوا السيوف في وجهه يبغضونه او يحبونه وغير ذلك قال وكان سيء الظن بالناس كافة فاذا نقل له عن احد خير لا يتكيف به ويثني حتى من هو عنده مجروح فيقع في ذم من هو بالسنة العالم ممدوح وبسبب

ذلك

ذلك وقع في نفس كبير منه الم كثير انتهى قلت انا لم اسمع منه في حق احد من الاحيا والاموات الا خيرا وما كنت اسمع عليه شيئا الا ما كان يبلغني عنه من الحط على الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد على اني انا ما سمعت في حقه شيئا نعم سمعته كان لا يثق بهولاء الذين يدعون الصلاح حتى قلت له يوما يا سيدي فكيف تقول في الشيخ ابي مدين فقال هو رجل مسلم دين والا كان يطير في الهوى ولا يصلي الصلوات في مكة كما يدعي فيه هولاء الاغمار وكان فيه رحمه الله تعالى خشوع يبكي اذا سمع القران ويجري دمعه عند سماع الاشعار الغزلية وقال كمال الدين المذكور قال لي اذا قرات اشعار العشق اميل اليها وكذلك اشعار الشجاعة تستميلني وغيرهما الا اشعار الكرم ما تؤثر في انتهى قلت كان يفتخر بالبخل كما يفتخر غيره بالكرم وكان يقول لي اوصيك احفظ دراهمك ويقال عنك بخيل ولا تحتاج الى السفل وانشدني من لفظه لنفسه

رجاوك فلسا قد غدا في حبايلي • قبيح رجا الناتج من العقم • التعب في تحصيله واضيعه
اذا كنت معتاضا من البر بالسقم • قلت والذي اراه فيه انه طال عمره وتغرب وورد البلاد ولا شي معه

وتعب حتى حصل المناصب تعبا كثيرا وكان قد جرب الناس وحلب اشطر الدهر ومرت به حوادث فاستعمل الحزم وسمعته غير مرة يقول يكفي الفقير في مصر اربعة افلس يشتري له بابتة بفلسين وبفلس زبيبا وبفلس كوز ماء ويشتري في كل يوم ليمونا بفلس يأكل به الخبز وكان يعيب على مشتري الكتب ويقول الله يرزقك عقلا تعيش به انا اي كتاب اردته استعرته من خزاين الاوقاف واذا اردت من احد يعيرني دراهم ما اجد ذلك وانشدني لنفسه اجازة

ان الدراهم والنسا كلاهما • لا تامنن عليهما انسانا • ينزعان اللب المتين من الفتى
ويري اساءة فعل احسانا • وانشدني له من ابيات • اني بشفيع ليس يمكن رده
دراهم بيض للجروح مراهم • تصير صعب الامر اهون ما يرى • وتقضي لبانات الفتى وهو نايم

ومن جيد قوله عذابي لهم فضل البيتين وقد مدحه كثير من الشعراء والكبار الفضلاء منهم القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله

قد قلت لما ان سمعت مباحثا • في الذات لم يرها اجل مفيد
هذا ابو حيان قلت صدقتم • وبرهم هذا هو التوحيد

وكان قد جا يوما الى بيت الشيخ صدر الدين بن الوكيل فلم يجده فكتب بالجص على مصراع الباب فلما راى ابن الوكيل ذلك قال

قالوا ابو حيان غير مدافع • ملك النحاة فقلت بالاجماع • اسم الملوك على النقود وانني
شاهدت كنيته على المصراع • ومدحه شرف الدين بن الوحيد بقصيدة مطولة اولها
اليك ابا حيان اعملت اينقي • وملت الى حيث الركايب تلتقي • دعاني اليك الفضل فانقدت طايعا
وليت اخوتها بلفظي المصدق • ومدحه نجم الدين اسحاق بن الملي التركي ورساله بتكملة شرح التسهيل ارسلها
اليه من دمشق واولها • تبدى نقلنا وجهه فلق الصبح • وكمله باليمن فيه وبالنجح
وسهلت تسهيل الفوايد محسنا • فكن شاكرا صدري بتكملة الشرح • ومدحه مجير الدين عمر بن اللمطي
بقصيدة اولها • يا شيخ اهل الادب الباهر • من ناظم يلغي ومن ناثر
ومدحه نجم الدين يحيى الاسكندري بقصيدة اولها • ضيف الم بنا من ابرح الناس
لا ناقض عهد ايامي ولا ناسي • عار من الكبر والادناس ذا ترف • لكنه من سرابيل العلى كاسي
ومدحه نجم الدين الطوفي بقصيدتين اول الاولى • اتراه بعد هجرانه يصل
ويرى في ثوب وصل مبتذل • تم جار على احلى منا • اذ تولاها تقيد معتدل
واول الثانية • اعذروه فكم يهوى من عذر • تم بذات وجه كالقمر
ومدحه بها الدين محمد بن شهاب الدين الخيمي بقصيدة اولها • تضعضعت عن العذيب لتيم ختامها
وفتحت من زهر الرياض كمامها • ومدحه جماعة اخرون يطول ذكرهم وكتبت انا اليه من الرحبة
سنة تسع وعشرين وسبعماية • لو كنت املك من دهري جناحين • لطرت لكنه فيكم جنى حيني
يا سادة تلك في مصر بهم شرفا • ارقى به شرفا تناى عن العين • وان جرى السما كيوان ذكر على
اعلى فضلهم فوق السماكين • وليس غير اثير الدين اثله • نسا وما شاد لي حقا بلا مين
حبر ولو قلت ان البار ربتها • من قبل صدقك الاقوام في ذين • احيى علوما اماتت الدهر اكثرها
مذ جاورت خلدت ما بين دفتين • يا واحد العصر ما قولي بمنتهم • ونحا احاشي امرا بين الزبيرين
هذي العلوم بدت من سيبويه كما • قالوا وفيك انتهت يا ثاني اثنين • فدم لها وبي ذي لو اكون فدا
لما نالك في الايام من شين • يا سيبويه الورى في الدهر لا عجب • اذا الخليل غدا يفديك بالعين

يقبل الارض وينهي ما هو عليه من الاشواق التي برحت بالمها واجرت الدموع دما وهذا الطرس الاحمر يشهد بذلها وادرت بسحبها على السحاب واين دوام هذه من دمعها وفرقت الاوصال على السقم لوجود عدمها

فيا شوق ما ابقى وبا لي من النوى • ويا دمع ما اجرى ويا قلب ما اصبى

ويذكر ولاه الذي يجهر به في الارض الحكايم وينشر تحت لوايه سير الرياح بين الغمايم • وثناؤه الذي يتضوع كالزهر بين الكمايم • وبنشره تنسم حمامات الولي انا البت من الربيع ملونات الغمايم • ويشهد الله على ما قلته والله نعم الشهيد • فكتب هو الجواب عن ذلك ولكنه عدم مني وانشدته يوما لنفسي

قلت للكاتب الذي ما ارا • ه قط الا وخط الدمع شكله
ان يخط الدموع في الخد شيئا • ما يسمى فقال خط ابن مقلة

وانشدني هو من لفظه لنفسه

سبق الدمع بالمسير المطايا • اذ نوى من احب مني نقلة • واجاد الخطوط في صفحة الخد
ولم لا يجيد وهو ابن مقلة • وانشدني في مليح تركي • كلفت بتركي كان قوامه
اذا يثني خوط من البان ناعم • بجاذبه في كل قلب مجاذب • وهزاته للعاشقين هزايم

King Saud University
Copyright King Saud University